

حوار مع المؤرخ ناصر الدين سعيدوني

د. الصالح بن سالم

جامعة محمد البشير الإبراهيمي - برج بوعريبيج

Salah.bensalem@univ-bba.dz

بتاريخ 03 مارس 2024 أقيم حفلا علميا بهيجا بالعاصمة القطرية الدوحة، تم فيها تكريم نخبة من المفكرين العرب المشتغلين في حقل العلوم الإنسانية، منح بموجبها هؤلاء العلماء جائزة الدوحة للكتاب العربي، وقد نال المؤرخ ناصر الدين سعيدوني شرف تمثيل الجزائر في هذه الجائزة، وقبلها في سنة 2021 تم تتويجه بالشخصية العلمية الأبرز من قبل مؤسسة وسام العالم الجزائري، نظير ما قدمه للجامعة الجزائرية، واسهاماته في تأثيث المكتبة الجزائرية والعربية بعشرات الدراسات الرصينة في حقل التاريخ بشكل عام والدراسات التاريخية العثمانية بشكل خاص، اكتسب بموجبها لقب رائد الدراسات العثمانية بالجزائر.

ناصر الدين سعيدوني من مواليد 10 جويلية 1940 بقرية بئر الشهداء ولاية أم البواقي، بدأ مرحلة الدراسة من بوابة مدرسة التهذيب التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتلازمة التي انتقلت إليها أسرته بحكم وظيفة الوالد الذي كان يشغل منصب إمام، وفي سن العاشرة انتقل ناصر الدين إلى حاضرة قسنطينة وانتسب لمدرسة التربية والتعليم، قبل أن يباشر تعليمه الثانوي بمعهد بن باديس والمدرسة الكتانية، وبحصوله على الشهادة الثانوية خاض بموجبها تجربة قصيرة في ميدان التعليم بكل من عنابة وبجاية، قبل أن يقرر استكمال دراسته العليا بجامعة الجزائر، والتي حاز منها على شهادة الكفاءة في التاريخ والجغرافيا من معهد الدراسات العربية العليا، توج خلالها بالرتبة الأولى في الدفعة سنة 1966، لينال بعدها شهادتي الليسانس في التاريخ سنة 1969 والجغرافيا سنة 1971 من نفس الجامعة.

رغم أن هذه الشهادات كانت تسمح للأستاذ ناصر الدين سعيدوني بممارسة مهنة التعليم الثانوي. إلا أن شغفه كان أكبر من ذلك، وهو الولوج

لمدرجات الجامعة، بعدما استكمل مرحلة الدراسات العليا وحاز على شهادة دكتوراه الحلقة الثالثة من جامعة الجزائر سنة 1974 في التاريخ الحديث والمعاصر، قبل أن يتوج مرحلة دراسته العليا بحصوله على شهادة دكتوراه دولة من جامعة إيكس آن بروفانس سنة 1988.

على المستوى المهني انتسب الأستاذ ناصر الدين سعيدوني لقسم التاريخ بجامعة الجزائر، والذي يعد أحد أعمدته لسنوات طويلة، تقلد خلالها عدة مناصب إدارية وبيداغوجية، وترأس عديد الهيئات العلمية، كما خاض تجربة مهنية في الخليج، من بوابة جامعة آل البيت بالأردن (1996-1998)، وجامعة الكويت (2001-2011)، وانتسب لعدد المراكز البحثية العربية والغربية، وشارك في عشرات الملتقيات والندوات الدولية، وأطر كوكبة من الباحثين الذين رفعوا مشعل درس العثماني بالجامعة الجزائرية.

هذه التجربة البحثية والمهنية الثرية تمكن الأستاذ ناصر الدين سعيدوني خلالها من تأثيث المكتبة الجزائرية والعربية بعشرات الدراسات التاريخية الرصينة بين مقالات وكتب، ترجمة وتحقيقا وتأليفًا، إذ فاقت مؤلفاته ثلاثين مجلد باللغتين العربية والفرنسية، تركزت أغلبها حول الفترة العثمانية بالجزائر، على غرار: النظام المالي للجزائر 1792-1830، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، دراسات في الملكية العقارية أثناء العهد العثماني، الجزائر في التاريخ، معجم مشاهير المغاربة، الجزائر منطلقات وآفاق، ورفات جزائرية، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الحياة الريفية بمقاطعة الجزائر أواخر العهد العثماني، دراسات أندلسية، قانون أسواق مدينة الجزائر، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر، دراسات وشهادات، أساسيات منهجية التاريخ، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط، رحلة العالم الألماني هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

وبمناسبة تخرج أول دفعة من قسم التاريخ بجامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريريج سنة 2023، والتي حملت اسم (المؤرخ جمال قنان)

تم توجيه دعوة للأستاذ ناصر الدين سعيدوني حتى يكون من ضيوف الشرف، ويقدم كلمة حول رفيق دربه الأستاذ جمال قنان رحمه الله، هاته الفرصة لم نشأ أن نفوتها، إذ قمنا بأجراء حوار تاريخي حول مسيرته العلمية والمهنية التي فاقت خمسة عقود.

■ نسعد باستضافتك أستاذ ناصر الدين في هذا الحوار التاريخي.

شكرا على الاستقبال والحفاوة والأخوة والتواصل العلمي.

■ هل لازال الأستاذ ناصر الدين سعيدوني يكتب؟ وماهي أهم المشاريع التي يعتكف على إنجازها حالياً؟

في الواقع الكتابة بالنسبة لي هي بمثابة التنفس، بمثابة الأوكسجين الذي يجدد خلايا الجسم، فبدون كتابة أعتبر نفسي منتهيا، وبذلك تنتهي الحياة العلمية بالنسبة لي، إذن الكتابة شيء يؤسس ويحافظ على الوجود الثقافي للإنسان، والكتابة بالنسبة لي هي همي وهي بلسمي وهي الآفاق التي أعيش من أجلها، لكن كما تعرف أن هذه الكتابة لها مواضيع ومشاريع.

في الواقع الآن في هذه الظروف وهذه السنوات أركز على مشروع مؤسسة سعيدوني أنا وإبني - معاوية - وذلك لإنجاز المدونة الجزائرية التي تقدم ثقافة أساسية معرفية يحتاجها كل جزائري حتى يمكن لنا أن نفهم واقعنا الثقافي، وأساسا فهي إلى حد الآن قد أنجزنا القسم الخاص بالذاكرة التاريخية، وهي النصوص الأساسية المتعلقة بالمدن والمواقع، والتي تعتبر المصدر الذي ينطلق منه الباحث، والآن نعمل على إنجاز القسم الخاص بالمونوغرافيات، ثم نتطرق إلى العمل الخاص بالأحداث والشخصيات التاريخية، وهذا المشروع الكبير قد يكون لي فيه فضل البداية لكن الاستمرار فيه يعود إلى الأجيال اللاحقة، وهنا أنوه بمساهمة الأستاذ معاوية سعيدوني الابن البار والباحث المجد، والذي هو الساعد الأيمن، والذي هو في الواقع مدير ومسير مؤسسة سعيدوني في موريتانيا بكندا.

■ هل يمكن للأستاذ ناصر الدين سعيدوني في نقاط مركزة أن يلخص لنا مسيرته البحثية والتي فاقت خمسة عقود؟ وماهي أهم المحطات التي يرى بأنها أثرت في تجربته البحثية؟

حقيقة ربما من الضروري أن يراجع الإنسان مسيرة حياته، فإذا جاز لنا القول بأن الإنسان له ولادة بيولوجية تبدأ مع ولادته وقد تنتهي دورته البيولوجية مع وفاته، فإن الحياة الثقافية والفكرية والتفاعل الثقافي قد يسمح للإنسان أن يعيش عدة ولادات علمية، وبالنسبة إلي باعتبار أنني من المسنين وأنا في الشباب الرابع كما تعرف وكل شباب له عشرين سنة فأقول بأنني - وهذا زعم من عندي - عشت خمسة عصور من حيث الأوضاع التي عشتها، فهناك الفترة الاستعمارية وكنت اثناءها طالبا، وهناك فترة الثورة، وهناك فترة الاستقلال بمراحله الاشتراكية والليبيرالية وغيرها من المراحل التي تنتهي إلى اليوم، فأقول بالنسبة إلي كان انتقالي إلى قسنطينة الولادة الأولى التي عشتها كطالب في التربية والتعليم ومعهد بن باديس والمدرسة الكتانية، وفيها تفتح عقلي وبدأت أعي الحياة، واكتملت هذه الولادة في مدينة الجزائر بالدراسة في الجامعة وحصولي على مؤهلات علمية جامعية من ليسانس ودكتوراه الحلقة الثالثة.

ثم تأتي الولادة الثانية وهي الدراسة في فرنسا والاحتكاك بالثقافة الغربية والاطلاع على البعد الثقافي العالمي، ثم تأتي الولادة الثالثة في المشرق لما أصبحت أستاذ هناك في الأردن والكويت وغيرها، وبذلك تكتمل هذه الدورة، وربما تسمح لي سنوات الشيخوخة بأن أعيش حياة أخرى وهي مراجعة ما عملته وإعادة التفكير في ما كتبته والتتظير لما عشت، وبذلك تنغلق الدورة الحياتية العلمية، فأقول بأن على كل طالب وعلى كل مثقف وعلى كل من شعر بذاته أن يحاول أن يعيش عدة ولادات ثقافية لأنها هي المجدد والمحرك والوازع الذي يجعل الإنسان يجدد حياته ويستثمر ويثمن معلوماته.

■ ما هو تقييم الأستاذ ناصر الدين سعيدوني للمنجز التاريخي الجزائري الخاص بالفترة العثمانية؟ وهل يمكن الحديث عن تبلور نواة أولى للمكتبة التاريخية الجزائرية العثمانية؟

هنا أقول بالنسبة لما يسمى الفترة العثمانية أن الجزائر تمتلك رصيда لا بأس به من خلال ما كتب سابقا وما تم تحصيله كرسائل جامعية، وهناك طلائع تبشر بولادة تيار يهتم ويطور الدراسات التاريخية العثمانية، من الجيل الجديد ما فيه خير وبركة وهم كثيرون، على غرار: شكيب بن حفري، محمد دراج، إبراهيم سعيود، خليفة حماش، فلة القشاعي، خير الدين سعيدي وغيرهم كثير وأعتذر عن نسيان بعض الأسماء.

هنا نجد بأن الفترة العثمانية أصبحت معركة ثقافية، فمن خلالها يتم اثبات هوية الدولة الجزائرية أساسا، فالجزائر كدولة وكشعب ترتبط بالفترة العثمانية، وبذلك فالصراع يدور حول الفترة العثمانية، ان انكار العهد العثماني هو تبرير الفترة الاستعمارية الفرنسية، وعدم تحليل الفترة العثمانية يؤدي لعدم امكانية الغوص في عبقرية التاريخ الجزائري، ولذلك فإن تاريخ الفترة العثمانية بالجزائر والتي كانت آنذاك دولة مستقلة كاملة السيادة في أواخر هذا العهد، ولها تواصل وترابط وتعاون وتنسيق مع الخلافة العثمانية، هذا شيء واقعي وكل مساس بهذا الواقع التاريخي هو تزوير للتاريخ، ومحاولة لتدمير الذاكرة الوطنية للشعب الجزائري، وهدم لأسس الدولة الجزائرية التي نعيش فيها الآن.

■ ان المتتبع للدراسات العثمانية بالجامعة الجزائرية يلاحظ بروز تيارين، الأول يرى بأن الوجود العثماني بالجزائر كان حتمية تاريخية من أجل انقاذ وتحرير الثغور من الاحتلال الإسباني المسيحي، بينما يرى التيار الثاني بأن الوجود العثماني بالجزائر مثله مثل بقية الاحتلال الأجنبية السابقة واللاحقة، على غرار الاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي والإسباني والفرنسي، فما هو رأي الأستاذ ناصر الدين سعيدي في هذه التجاذبات التاريخية؟

في الواقع نجد بأن النظرة للعهد العثماني بالجزائر تتجسد في ثلاثة اتجاهات، جزء مغيب وهم المؤرخون الذين يعيشون من أجل قصاصات تاريخية لا يتخذون رأي ولا يتبنون فكرة، وهم الذين يعتبرون التاريخ سرد للأحداث والوقائع عبر العصور، وهو موقف سلبي لأن المؤرخ يجب أن يكون له رأي وله مبدأ وله توجه، لأنه من دون نظرة سياسية ومن دون بعد ايديولوجي وفكرة حضارية المؤرخ يصبح ببغاء وكأنه حفار قبور.

لكن لنعود إلى الفئتين المتنازعتين في الساحة، وهما مناصري الفترة العثمانية والذين يعتبرون بأن الدولة الجزائرية الحديثة ظهرت في الفترة العثمانية، والآخرين الذين ينفون هذه الفكرة، أفكاري تجدها في الكتب التي كتبتها، وربما أحسن ما كتبت في هذه المسألة المقال الذي صدر في مجلة البحر المتوسط حول التواصل والتعاون العثماني الجزائري، والذي قدمت من خلال تلك الأفكار مداخلة في مؤتمر العلاقات التركية الجزائرية.

بالنسبة للذين يؤمنون بأصالة الفترة العثمانية وبوجود الدولة الجزائرية في العهد العثماني هؤلاء ينطلقون من منطق حضاري يتجاوز الاقليميات ويرفع عن الايديولوجيات الضيقة، وهم الذين يؤسسون للأمة الجزائرية. باعتبار الجزائر في القرن السادس عشر ظهرت كدولة حديثة من خلال الأنظمة وفي إطار الصراع العالمي الإسلامي المسيحي، وبذلك قامت الدولة الجزائرية على أسس حديثة لا تعتمد على القبيلة بينما ظلت بعض الأقطار المجاورة تعيش على فكرة الأسرة الحاكمة والقبيلة المستبدة، فالجزائر خرجت من مبدأ القبيلة والعشيرة والزمرة مع ظهور النظام الجزائري في إطار الصراع الحضاري بين عالمي المتوسط المسيحي والإسلامي، وتطورت لتصل إلى استقلال فعلي مع القرن الثامن عشر.

أما الجانب الآخر وهو الذي ينفي أصالة العهد العثماني ويمحو وجود الدولة العثمانية من الذاكرة التاريخية الجزائرية، فهؤلاء نصيحتي لهم أن يحرروا أنفسهم من نسيان الذاكرة، وأن يسترجعوا ذاكرتهم لأن هذه الفكرة أساسا ولدت مع تبني الفكر الأوروبي الذي يبرر الاستعمار الفرنسي للجزائر مع وجود استعمار آخر كما يزعمون وهو الاستعمار العثماني، وهذا الفكر ينطلق من الثقافة الفرنسية الأنجلو فرانكوفونية التي في الواقع لها تحسسات من التاريخ الحضاري الجزائري.

وبذلك أرى بأن هذا التوجه مرتبط بجيل له ثقافة أجنبية أو متأثر بالثقافة الأجنبية، وبذلك أرى من الضروري مراجعة الذات من هذه الأفكار. لكن أرى بأن المنطلق من ذلك يكون في ندوات تاريخية وحوارات، لا سيما مع الجيل الجديد للباحثين، أقول ذلك مع احترامي لهذه الأفكار، فنحن في عالم الحرية الفكرية واحترام الرأي الآخر، فمن لهم رأي مغاير عليهم البرهنة عليه بالشواهد

والمعطيات التاريخية والأدلة التي لا تقبل النقض، وربما الحكم والفيصل في هذه القضية هو الأرشيف العثماني، وأنا جد مسرور باعتبار أن المعركة تكون في صالح الذاكرة الجزائرية، لا سيما وأن هناك جيل جديد من العثمانيين من ذوي البضاعة الجيدة في اللغة العثمانية ولهم اطلاع في الأرشيفات العثمانية، وعليهم يكون التعويل، وهم الطلائع التي ستبحث في هذا المجال.

وعلى كل حال فإنه مع الزمن ستتخلص الجزائر من اللوثة الثقافية الأجنبية، وهناك نجد بأن تاريخ الجزائر متكامل، فهناك أصول أصيلة لفترة ما قبل الإسلام، وهناك انتساب حضاري للفترة الإسلامية، وهناك تكوين سياسي للدولة الجزائرية في العهد العثماني، وهناك مقاومة وطنية في فترة الاستعمار الفرنسي، وهناك ثورة تولدت منها الجزائر المعاصرة شعورا وفكرا وتوجها، وهناك فترة الاستقلال التي نتمنى أن تكون فترة بناء وتكامل، وبذلك معركة التاريخ هي معركة حيوية وأساسية، فمن دون أن نربح هذه المعركة كل المنجزات تصبح مثار شك. بل مراجعة. فعلى تصفية التركة التاريخية بإثبات الأصالة والاستمرارية للذاكرة الجزائرية في بعدها الحضاري وفي منطلقاتها السياسية وفي روحها التحررية.

■ لقد سبق للأستاذ ناصر الدين سعيدوني خوض تجربة بحثية ومهنية في عديد المراكز والجامعات الغربية والعربية (فرنسا، تونس، قطر، الكويت، الأردن...)، فما هو الفرق الذي وجدته في هذه المناطق مع ظروف الباحث والأستاذ بالجامعة الجزائرية؟

في الواقع ربما أسعدني الحظ أنني عشت تجارب وسمحت لي الظروف بالمشاركة في عشرات المؤتمرات الدولية في مختلف البلدان وعملت كباحث وأستاذ في بعض المراكز الغربية والعربية، وبذلك أتمنى أن تنتقل مثل هذه التجربة إلى غيري من الباحثين الجزائريين باعتبارها البضاعة الجيدة للباحث، لكن بين الآخرين وبيننا فرق شاسع، فنحن وبحكم تكوين الجزائر الحديث وخروجها من نفق الاستعمار لم تتأصل بعد لدينا ما يسمى بالتقاليد العلمية، وهي أسبقية الأستاذ على الإداري، وأسبقية المفكر على المسير، وأسبقية المعرفة على بقية مشاغل الحياة، وبذلك وجب أن نراجع أنفسنا في هذا الجانب، فنحن نمتلك خامات من الباحثين ذوي القدرات العلمية الهائلة، ولدينا جامعات كثيرة، وننوفر

على شباب صاعد، ولدينا إمكانيات ضخمة تنفقها الدولة على هذه المؤسسات البحثية، لكن الحصيلة إلى حد ما حسب علمي متواضعة جدا من خلال ما تنتجه مراكز ومخابر البحث، والعلة أرى بأنها تكمن في نظرتنا الدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية.

فلماذا أسسنا أكاديميات للعلوم الرياضية والتقنية ولم نؤسس أكاديميات للعلوم الإنسانية والاجتماعية؟، وهو ما يعتبر قصورا في هذا الجانب، والخطورة في ذلك تكمن في أن العلوم الرياضية والتقنية هي علوم مقننة نحتاجها ولها مكانتها. لكن العلوم الضرورية لتكوين الإنسان الجزائري ولتكوين الضمير الجزائري ولبناء الذهنية الجزائرية تكمن في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فالرياضي يعمل من خلال برامج تقنية بينما عالم الاجتماع والمؤرخ هو الذي يبحث لطرح مشاريع المجتمع وتطوير فكر المجتمع، والفرق بينهما كبير، بين من يعمل على بناء مشاريع المجتمع وبين من يعمل على اكتساب التقنية والمهارات العلمية، كلاهما ضروري ويكملان بعضهما البعض. لكن علينا أن نغير نظرتنا إلى هذه الجزئية، هنا تأتي نقطة الضعف وهي التحكم الإداري في الشأن العلمي، هذا خطر داهم، فعلى الإداري أن يكون في خدمة العلمي، المبادرة من الجانب العلمي والتنفيذ وتقديم الإمكانيات يكون من الجانب الإداري، نحن عندنا الأمور مقلوبة أسبقية الإداري على العلمي تؤدي إلى جمود المؤسسات، وإلى عدم العطاء العلمي، ونصبح فقط نعيش في بيروقراطية إدارية جامدة لا تساعد على تطوير الفكر. قد يكون كلامي هذا صحيحة في واد، لكن ربما يكون هناك من في الواد من يسمع هذه الصيحة، لا يمكن أن نبني الذاكرة الجزائرية إلا من خلال تنمية العلوم الإنسانية والاجتماعية.

هناك ملاحظة أخيرة، نحن لم نتعامل سوية مع الشأن العلمي الثقافي، فإذا ذهبنا إلى الثقافة وجدنا بأن هناك ثقافة إدارية، وثقافة علمية، وثقافة شعبية، وثقافة أخرى وصلتها بعض الشعوب المتقدمة ولم نتمكن نحن من الولوج إلى مجالها، فعلى أن نعطي الأسبقية للثقافة العالمية المنتجة للفكر، فهي التي تستطيع أن تبعث روح النهضة والفكر في الضمير الجزائري.